

جهود علماء الجمعية في سبيل النهوض بالأمة الجزائرية

The Efforts of the Association's Scholars for the Advancement of the Algerian Nation.

ط.د/ الدراجي شطي

أ.د/ خديجة الشامخة

جامعة غرداية (الجزائر)

chetti.derradji@univ-ghardaia.dz

تاريخ القبول: 2021/09/29

تاريخ الإرسال: 2021/09/10

ملخص:

تعدّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أكثر الهيئات أثرا في تاريخ الجزائر، وذلك للدور العظيم الذي قام به علماءؤها في سبيل النهوض بالأمة الجزائرية، وعليه تهدف هذه الدراسة إلى إبراز جهود علماء الجمعية في سبيل النهوض بالأمة الجزائرية، حيث إن قراءة التاريخ ومحاولة استثماره في الحاضر والمستقبل، يعدّ أساس تطور الأمم ورفيها، ومنه نطرح التساؤلات الآتية:

- ما هو دور علماء الجمعية في نهضة الأمة الجزائرية؟
 - ما هي الجهود المبذولة في سبيل ذلك؟
 - هل كان لها ذلك الأثر المرجو الذي تطمح إليه الجمعية وكل الأمة الجزائرية آنذاك؟
- ولإجابة على هذه التساؤلات رأينا تقسيم هذه الورقة البحثية إلا ثلاثة مباحث هي:
- 1- جهود علماء الجمعية في الإصلاح الديني.
 - 2- دور علماء الجمعية في التربية والتعليم.
 - 3- وسائل علماء الجمعية في نشر الوعي الوطني والقومي.

الكلمات المفتاحية: الجهود، جمعية العلماء، الأمة، الجزائر، الوطنية.

Abstract:

The Association of Algerian Muslim Scholars is one of the most influential bodies in The history of Algeria, for the great role played by its scholars in the advancement of the Algerian nation, and accordingly this study aims to highlight the efforts of the association's scholars in order to promote the Algerian nation, since reading history and trying to invest it in the present and the future, is important in the development of the nation, from which we ask the following questions:

What was the role of the association's scholars in the renaissance of the Algerian nation? What efforts were being made to do so? Did it have the desired effect that the Assembly and the entire Algerian nation aspired to at the time ?

To answer these questions, we saw the division of this research paper into only three investigations:

- 1- The efforts of the association's scholars in religious reform.
- 2- The role of the association's scholars in education.
- 3- The means of the association's scientists in spreading national and national awareness.

keywords: Efforts, Scholars association, Nation, Algeria, National.

مقدمة:

بعد ظهور النهضة العربية الحديث في المشرق العربي، وظهور الحركات الوطنية والقومية في جلّ تراب العالم العربي والإسلامي، كان لزاماً أن تولد حركة وطنية إصلاحية نهضوية في جزائرتنا الحبيبة، حيث عمل الاستعمار الفرنسي في الجزائر على طمس الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، وجند كلّ وسائله في سبيل نشر الجهل والأمية والخوف والخنوع في أبناء هذا الوطن، علّه يستطيع القضاء على كلّ ما يمت بصلة إلى الروح الجزائرية العربية الإسلامية، فهدم المساجد وحولها إلى كنائس و خرب المدارس محاً معالم الثقافة والمعرفة في هذا الوطن، لذلك جاءت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كردة فعل على جرائم الاستعمار في حق الشعب الجزائري، فعزم علماؤها العائدون متشبعين بالثقافة العربية الإسلامية - كالشيخ العلامة عبد الحميد ابن باديس والشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي - على استرجاع الهوية الوطنية العربية الإسلامية للشعب الجزائري حاملين لواء الإصلاح الذي

اعتمدوا فيه على ما نخلوا من علم ديني ولغوي، فأنشأوا المدارس والجمعيات والنوادي الثقافية، ووضعوا مشروعاتهم الإصلاحية التي من شأنها عدة جوانب في البناء الاجتماعي للوطن، كيف ذلك؟

1- دور علماء الجمعية في الإصلاح الديني:

لا يخفى على من أحاط علماً بتاريخ الجزائر في العهد الفرنسي تلك الحالة التي كان يعيشها المجتمع الجزائري من جهل مفروض، والذي لم يقتصر على الجهل بالقراءة والكتابة والعربية لدى كثير من أبناء الشعب، بل تعداه إلى الجهل بالدين والعقيدة الصحيحة، وعليه جعل قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مسألة تعليم الأمة عقيدتها الصحيحة هدفاً من أسمى الأهداف التي سعت إليها الجمعية، فقد «جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت، فوجد هذه المقومات راسخة الأصول، نامية الفروع، على نسبة من زمنها؛ فتعهد في الظاهر باحترامها، والمحافظة عليها... ولكنهم عملوا في الباطن على محوها بالتدريج وتم لهم - على طول الزمن بالقوة وبطرائق من التضليل والتغفيل - جزء مما أرادوا... فقد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل والتعليم بإفشاء الأمية»⁽¹⁾. وقد كان لهذه السياسة الاستعمارية أثر عميق في زعزعة عقائد الجزائريين، لذلك عزم علماء الجمعية على السير نحو التصحيح الديني، ورد الأمة الجزائرية إلى جادة الصواب، وهذا ما يوضحه الشيخ العربي التبسي في تقرير لجمعية العلماء لرسالة الشيخ مبارك الملي حيث قال: «إنَّ الدعوة الإصلاحية التي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلامي في العالم الإسلامي عامة، وتقوم بها جمعية العلماء في القطر الجزائري خاصة تتلخص في دعوة المسلمين إلى العلم والعمل بكتاب ربهم وسنة نبيهم، والسير على منهاج سلفهم الصالح في أخلاقهم وعبادتهم القولية والاعتقادية والعملية وتطبيق ما هم عليه اليوم من عقائد وأعمال وآداب، على ما كان في عهد السلف الصالح»⁽²⁾. الأمر الذي يشير إليه - أيضاً - الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله - في قوله: «رأينا كما يرى كل مبصر ما نحن عليه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق وفساد في العقيدة وجمود في الفكر

وقعود عن العمل وانحلال في الوحدة وتعاكس في الوجهة وافتراق في السير. حتى خارت النفوس القويمة وفترت العزائم المتقدمة»⁽³⁾. إذ نجد في هذا القول إشارة واضحة من الشيخ إلى الحال التي وصل إليها المجتمع، لذلك رأينا علماء الجمعية يركزون في أعمالهم على بث الوعي الديني في أوساط المجتمع، وتصحيح العقائد من خلال الدعوة إلى الكتاب والسنة ويواصل الشيخ قائلا: «فأخذنا على أنفسنا دعوة الناس إلى السنة النبوية المحمدية وتخصيصها بالتقدم والأحجية فكانت دعوتنا - علم الله - من أول يوم إليها والحث على التمسك والرجوع إليها... وقد زدنا من فضل الله أن أسسنا هذه الصحيفة الزكية. وأسميناها (السنة النبوية المحمدية) لتنتشر على الناس ما كان عليه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في سيرته العظمى، وسلوكه القويم، وهديه العظيم»⁽⁴⁾. وهنا يوضح الشيخ رحمه الله منهج الجمعية وأعضائها في عملها الإصلاحي الذي جعل الدين والعقيدة في مقدمة اهتماماته وهذا- أيضا - ما نلمسه في قول الشيخ: «رأينا واجبا علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة وهدى صالح سلف الأمة وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات فكان لزاما أن نؤسس لدعوتنا صحافة تبليغها للناس فكان المنتقد وكان الشهاب»⁽⁵⁾. وعليه ما كانت هذه الصحف المذكورة إلى وسيلة من وسائل الجمعية للدعوة إلى الحق ومحاربة البدع والضلالات وربما نستشهد على حرص علماء الجمعية على تصحيح العقيدة بقول للشيخ ابن باديس في قضية الدعاء والاستغاثة بغير الله على أنه من الضلال المبين حيث قال: «ويدعو المخلوق خالقه ويستغيثه، في تيسير الأسباب العادية وفيما هو وراء تلك الأسباب من الألفاظ الخفية وما هو فوق الطاقة البشرية على هذا جاء قول الله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فتوجهوا إليه بالدعاء وطلب التخليص من المكروه بالنصر على الأعداء وقد كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بين ظهرانيهم فلم يستغيثوه لعلمهم أنّ الاستغاثة فيما وراء الأسباب لا تكون إلا لله»⁽⁶⁾.

نجد في هذا القول تركيز الشيخ على تصحيح عبادة من أعظم العبادات في الإسلام وهي الدعاء والاستغاثة، ليبين - رحمه الله - أنه لا ينبغي أن تصرف لغير الله عز وجل حتى لو كان النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد أوضح الدكتور عمار الطالبي مذهب ابن باديس القائم على التصحيح الديني الذي هو أساس التصحيح الاجتماعي حيث قال: "والشيخ

ابن باديس من المدرسة التي ترى أنّ الإصلاح الاجتماعي يقوم على أساس أنّ الأخلاق تنبع من الداخل، وأنّ الوسيلة هي تطهير القلوب وتغيير النفوس، وهذا يؤدي إلى تغيير المؤسسات الاجتماعية. يقول ابن باديس: (إنّ الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا، وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، فالباطن هو أساس الظاهر).

وهو يعتبر أنّ العناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، وأنّ صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها⁽⁷⁾. وهنا نلمس إشارة منه إلى قول النبي ﷺ «ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»⁽⁸⁾.

وقد اعتمد الشيخ في تعليمه لتعاليم الدين الإسلامي على تفسير كتاب الله عز وجل وشرح أحاديث النبي ﷺ مركزا في ذلك على الجانب الروحي والتربوي وما يحمل النفس على الاستقامة والاعتدال⁽⁹⁾ كما نجد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله ينبه الأمة الجزائرية إلى ضرورة التمسك بالدين الإسلامي ومقوماته حيث يقول: «الجزائر هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي ثلث من الأمة المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان الدين»⁽¹⁰⁾. وفي هذا المقتطف توضيح من الشيخ الإبراهيمي لأهمية الدين في بناء الأمة ويواصل رحمه الله قائلا: «فالأمم الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان، وحدة متماسكة الأجزاء يأبى لها الله أن تتفرق وإن كثرت فيها دواعي التفرق ويأبى لها دينها - وهو دين التوحيد - إلا أن تكون موحدة، وتأبى لها الفضائل الإسلامية إلا أن تكون مظهرا للفضيلة في هذا العالم الإنساني، فإذا كان في تلك الأمم من يضار الفضيلة أو يخونها في اسمها فما ذلك من الإسلام في شيء؛ وإنما هو انحراف مزاج سببه سوء الفهم أو غلبة وهم، أو دعوى طباع أو هو تقليد واتباع»⁽¹¹⁾. في هذا الكلام نلمس مدى إحساس الشيخ بضرورة الفهم الصحيح للدين الإسلامي الحنيف وتحكيمة في أمور الحياة ليستقيم حالها، ونبذ التقليد لغير المسلمين مما يحافظ على الهوية الإسلامية الصافية للأمة الجزائرية.

كما نلاحظ الشيخ الإبراهيمي - رحمه الله - ينبه إلى ضرورة اتباع السنة وترك البدع والضلالات لأنّ الإسلام واحد مشيرا بذلك لمن خالف السنة من خاصة الشعب الجزائري

المسلم وعامته، حيث يقول: «المسألة بيننا لا تتجاوز أحد أمرين: إما سنة نحن وهم سواء في امتثالها والإذعان لها. أو بدعة نحن وهم سواء في تجنبها وقتلها هذا باعتبار الإسلام الجامع بيننا. أما إذا كان الطرف الآخر لا يدين بما ندين فما كان لنا أن نأخذ من على غير ملتنا بما وجب علينا أخذ أنفسنا به»⁽¹²⁾. كما جاء في تقرير إلى لجنة الإصلاحات الإسلامية في الجزائر توضيح للهدف الأسمى للجمعية وعلمائها: «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تتشرف بحمل لواء الإصلاح الديني بالدعوة إلى نشره وتحقيقه، ذات برنامج عملي في تعليم الإسلام على حقيقته من أصلية - الكتاب والسنة - وفي نشر الفضائل الإسلامية والأخلاق القرآنية، وما يقتضيه ذلك من محاربة البدع والخرافات والجمود والذائل والمحرّمات»⁽¹³⁾. وعلى هذا النهج سار علماء الجمعية كالشيخ مبارك الميلي في رسالته "الشرك ومظاهره" والشيخ الطيب العقبي والشيخ العربي التبسي في مقالاتهم التي تزخر بها صحف الجمعية وجلّ علماء الجمعية ليتضح مدى الدور الذي قام به علماء الجمعية في الإصلاح الديني بالجزائر بعدما عمل الاستعمار على سلخ الأمة الجزائرية من دينها وعقيدتها وهويتها.

2- دور علماء الجمعية في التربية والتعليم:

إنّ حرص علماء الجمعية على الإصلاح الديني والاجتماعي في أرض الجزائر - التي عاث فيها الاستعمار فسادا وعمل على نشر الجهل والامية في أوساط شعبها - لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال التربية والتعليم وعليه عملت الجمعية على إنشاء المدارس والنوادي في جميع أنحاء الوطن كالمعهد الباديبي بقسنطينة ودار الحديث بتلمسان وغيرها من المدارس والنوادي، وكتصوير لجرم المستدمر يقول عدنان مهدي: «جميعنا يعرف سياسة التجهيل التي ينتهجها أيّ مستعمر في أيّ بلد إلا أنّ ما اقترفته فرنسا في حقّ الشعب الجزائري لا يمكننا وصفه بأقل من الجريمة»⁽¹⁴⁾. هذا ما جعل علماء الجمعية يضعون في مقدمة أهدافهم تعليم أبناء الشعب الجزائري والرفقي بمستواه العلمي والفكري فعملوا - كما سبقت الإشارة - على إنشاء المدارس ودور العلم، وقد كان لرئيس الجمعية الشيخ عبد الحميد ابن باديس آنذاك سابقة في المجال من خلال ما حصّله خلال تعليمه بجامع

الزيتونة إذ نقد الشيخ -رحمة الله عليه- «طرق التدريس في جامع الزيتونة وبين أنها ليست وسيلة تؤدي إلى تحقيق الغرض من التربية كما يتصوره»⁽¹⁵⁾. وما هذا الكلام إلا دليل على تمرس الشيخ في التدريس، الأمر الذي جعله كفاء لتعليم أبناء الجزائر «وأول عمل تربوي تعليمي سجله ابن بايس في قسنطينة كان سنة 1332هـ فكان يعلم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها صباحا وعشية ثم بعد بضع سنوات أسس مع جماعة من الفضلاء المتصلين به، مكتبا للتعليم الابتدائي وذلك في مسجد سيدي بومعزة ثم انتقل إلى بناية الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست سنة 1917م وفي سنة 1349هـ - 1930م تطور مكتب الجماعة إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم الإسلامية ... وجاء في القانون: أن مقصود الجمعية نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف الدينية، والعربية، والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين، وبينت المادة الثالثة الوسائل:

1. تأسيس مكتب للتعليم
2. ملجأ للأيتام
3. ناد للمحاضرات
4. معمل للصنائع
5. إرسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى»⁽¹⁶⁾. وهذه من بدايات حرص علماء الجمعية على تعليم أبناء الشعب الجزائري، فقد كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - ممثلة في أعضائها الذين كانوا خيرة شباب الجزائر آنذاك - الحصن المنيع الذي تولى الحفاظ على الهوية الوطنية والعربية الإسلامية للبلد، حيث يقول عدنان مهدي: «كانت: جمعية العلماء المسلمين: حاملة تكوين الجمعيات على مستوى الوطن وكان الهدف هو تكاتف الجهود لإنشاء المدارس العربية الإسلامية ولقد استقبلت هذه المدارس العديد من الطلبة في وقت فراغهم لتكوينهم على المحافظة على الدين واللغة العربية كما عمدت إلى إنشاء العديد من الأندية الثقافية التي كانت مركز لقاء جميع شرائح المجتمع على اختلاف أعمارهم»⁽¹⁷⁾. ومن الدروس المقدمة من طرف الشيخ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- في قسنطينة جاء في جريدة الصراط ما يلي: «فتحت الدروس العلمية بقسنطينة في غرة رجب وجاء الطلبة من العمالات الثلاث وتجاوز عددهم المائة والحمد لله

وها هي الدروس التي يقوم بها الأستاذ ابن باديس بنفسه للطبقة الثالثة الجزء الثاني من الدردير على مختصر مفتاح الوصول للشريف التلمساني، الدمنهوري على الجوهر المكنون المكوي على الألفية، التلخيص بمختصر السعد، درس التفسير العام»⁽¹⁸⁾. هذا نموذج عن الدروس التي كان يقدمها ابن باديس وكلها تصب في تعليم العربية وعلوم الدين.

وفي عهد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أوضح رحمه الله في بيان للمجلس الإداري للجمعية سنة 1943م أنّ الجمعية عازمة على مواصلة مشروعها التربوي التعليمي، في جميع ربوع الوطن وكانت تبسة أحد هذه النماذج، وطمأن الشباب المتعطش للعلم، كما أوضح أنّ ذلك سيكون بقيادة الشيخ العربي التبسي مع ثلة من الأساتذة تحت إشرافه، مبنية الجمعية في الحفاظ على المدارس والتعليم العربي⁽¹⁹⁾.

وكما اهتم علماء الجمعية بتعليم الشباب فإنهم أيضا قد اهتموا بتعليم المرأة؛ ذلك أنّ تعليم المرأة أمر ضروري لتطور المجتمع ولا يمكن بناء حضارة في ظلّ تجهيل المرأة على حدّ تعبير مالك بن نبي⁽²⁰⁾، وقد ذكر الدكتور عمار الطالبي اهتمام ابن باديس رحمه الله بتعليم المرأة فقال: «إنّ ابن باديس على بصيرة بما للمرأة من وظيفة اجتماعية تربوية عظيمة ولذلك فإنّه أوجب تعليمها وإنقاذها ممّا هي فيه من الجهالة العمياء، ونصح بتكوينها تكويناً يقوم على أساس العفة وحسن تدبير المنزل، والنفقة والشفقة على الأولاد، وحسن تربيتهم، كما أنّه حمّل مسؤولية جهل المرأة الجزائرية أولياءها، والعلماء الذين يجب عليهم أن يعلّموا الأمة رجالها ونساءها، وقرر أنّهم آثمون إثماً كبيراً إذ فرطوا في هذا الواجب. واستدل على وجوب تعليم المرأة بالعموميات القرآنية الكثيرة الشاملة للرجال والنساء، وبأحاديث شريفة، ومذهبه أنّ الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا بمخصص من إجماع أو نص أو ضرورة طبيعية، لأنّ النساء شقائق الرجال»⁽²¹⁾ وللحثّ على العلم والحرص على طلبه ومواصلة المسير كتب محمد البشير الإبراهيمي - رحمه الله - رسالة إلى الطلبة الجزائريين بالزيتونة يشجعهم فيها على إكمال المسير والنهل من بحور العلم ليكونوا أعمدة وطنهم وبناء عزه ومجده وحثهم على الاقتداء بالشيخ عبد الحميد ابن باديس رحمه الله تعالى⁽²²⁾.

كما يوجه -رحمه الله- كلمة إلى المعلمين ينيهم فيها إلى المسؤولية الملقاة على عاتقهم فيقول: «إنكم تجلسون من كراسي التعليم على عروش ممالك، رعاياها أطفال الأمة، فسوسوهم بالرفق والإحسان، وتدرجوا بهم من مرحلة كاملة في التربية إلى مرحلة أكمل، إنهم أمانة الله عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم، سلمتهم إليكم أطفالا، لتردهم إليها رجالا، وقدمتهم إليكم هياكل لتنفخوا فيها الروح، وألفاظا لتعمروها بالمعاني، وأوعية لتملأوها بالفضيلة والمعرفة»⁽²³⁾. وهنا يحدد -رحمه الله- واجب المعلم نحو تلاميذه وأتمه قصد التحسيس بعظم المسؤولية المنوطة بالمعلمين.

إضافة إلى ذلك نرى الشيخ الإبراهيمي -رحمة الله عليه- يبين منزلة المثقف والمتعلم في الأمة فيقول: «والمثقفون في الأمم الحية هم خيارها وسادتها وقادتها وحرّس عزها ومجدها. تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير، ويقومون هم لها بواجب القيادة والتدبير ومازالت عامة الأمم، من أول التاريخ تابعة لعلمائها وأهل الرأي والبصيرة فيها»⁽²⁴⁾. في هذه الكلمات تبيان من الشيخ لمكانة العلم وأهله، ولا يخفى على عارف بتاريخ الشيخ مدى تبنّيه لقضية التربية والتعليم فجّل مقالات الشيخ المنشورة في البصائر وغيرها رأيناها فيها حاملا لواء الدفاع عن التربية والتعليم في أرض الوطن.

هذا موجز عن دور علماء الجمعية في التربية والتعليم على أرض الجزائر والذي لا يمكن حصره في بضع كلمات.

3- وسائل علماء الجمعية في نشر الوعي الوطني والقومي:

لقد كان علماء الجمعية على وعي ودراية بحالة الوطن الجزائري والأمة العربية، الأمر الذي جعلهم يحملون على عاتقهم مسؤولية توعية الأمة الجزائرية والعربية عامة بأهم القضايا الوطنية والقومية، وقد جعلوا من الأدب وسيلة لإيصال صوتهم للشعوب وإيصال صوت الشعوب من خلالها، لذلك سنحاول في هذا المبحث تتبع اهتمام علماء الجمعية في أدبهم - شعره ونثره - بتلك القضايا، كالدين واللغة والوطن ووحدة الأمة.

وفي هذا الصدد يشير محمد الصالح الجابري إلى معالجة طلبة الجزائر بالزيتونة -في أشعارهم- لقضايا الوطن والأمة والذين منهم أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قائلا: «يصح القول في البدء بأن البيئة الثقافية التونسية كانت منطلقا من المنطلقات الأساسية لظهور أبرز الشعراء الجزائريين المعاصرين، الذين جاؤوا إلى تونس مجرد طلاب علم وافدين على جامع الزيتونة، فإذا بهم يجدون في الصحافة والمجلات التونسية والوسط الثقافي التونسي مجالا رحبا لتفجير مواهبهم الشعرية، وكتابة مختلف أنماط القصائد، وخاصة منها القصائد القومية والنضالية»⁽²⁵⁾، وقد ذكر الجابري من بين هؤلاء محمد العيد آل خليفة والسعيد ناجي الزاهري ومحمد الأخضر السائحي، والصالح خريفي وغيرهم⁽²⁶⁾.

وللاستشهاد على إصرار علماء الجمعية على غرس الروح الوطنية والقومية في نفوس الجزائريين نسوق أبياتا مشهورة للشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله طالما تغنى بها أبناء الجزائر والتي يقول فيها:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ وَإِلَى الْغُرُوبَةِ يَنْتَسِبُ
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبَ
أَوْ رَامَ إِذْمَاجًا لَهُ رَامَ الْمُحَالَ مِنْ الطَّلَبِ
يَا نَشْءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا وَبِكَ الصَّبَاحُ قَدْ اقْتَرَبَ
خُذْ لِلْحَيَاةِ سِلَاحَهَا وَخُضِ الْخُطُوبَ وَلَا تَهَبْ⁽²⁷⁾

في هذه الأبيات يوضح الشيخ رحمه الله ارتباط الجزائر بالأمة العربية والإسلام، كما يبحث على ضرورة تحرير الوطن مؤمنا بالشباب الجزائري الغيور على وطنه.

ويقول في أبيات أخرى يبحث من خلالها أبناء الشعب على بذل الغالي والنفيس في سبيل الوطن والأمة:

أشعبَ الجزائرِ روحَ الفِدا لَمَّا مِنْ عِزَّةٍ عَرِيَّةٍ
بَنَيْتَ عَلَى الدِّينِ أَرْكَانَهَا فَكَانَتْ سَلَامًا عَلَى الْبَشَرِيَّةِ
خَلَدْتُمْ بِهَا وَبِكُمْ خَلَدَتْ بِهَذَا الدِّيارِ عَلَى الْأَبَدِيَّةِ
فَدُومُوا عَلَى الْعَهْدِ حَتَّى الْفَنَاءِ وَحَتَّى تَنَالُوا الْحَقَّ السَّيِّئَةَ

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله مشيدا بدور الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله في إرساء الشخصية الوطنية والعربية بين أبناء الجزائر: «عمل هذا المصلح طاقته في سبيل أن يحتفظ الجزائريون برباطهم المقدس الذي يجمعهم على كلمة واحدة ديناً ولغة ماضياً ومصيراً»⁽²⁸⁾.

ومن شعراء الجمعية الشاعر الفحل محمد العيد آل خليفة الذي جده يزهو بنزعتة الثورية الوطنية، حيث يقول في قصيدة له بعنوان "صرخة ثورية" ألقيت في إحدى حفلات مدرسة "الشبيبة" سنة 1932م:

تؤلفنا الملة المرتضا ة وتجمعنا الرحم العرييه
شباب الجزائر طب بالاخا ء فقد حزت في رعيه الأسبقيه
وطف حول مورده المستطاب كما طافت النحل الخليه
أناديك للخير خير النداء وأوصيك بالحق حق الوصيه
ذر الخوف تعرف ثنايا السلوك فمن هاب خاب وضل الثنيه
رأيت المنايا سبيل المنى فخاطر تصب منية أو منيه
إذا زلزلت بالخطوب البلاد فلا خير في حذر أو تقيه
تولى زمان الرضى بالهوان ووافى زمان الفدى والضحيه⁽²⁹⁾

نلاحظ في هذه الأبيات النزعة الثورية النابعة من حب الوطن والهوية العربية، حيث يؤكد الشاعر على أن الروح رخيصة في سبيل الوطن والحرية ولا خير في عيش الذل والهوان وللشاعر قصائد ثورية وقومية عديدة تنبي عن تلك الروح الوطنية والقومية لأبناء الجمعية.

ومن بين ما نذكره في الروح الوطنية ومشاركة الشعب مآسيه ما قاله الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في ذكرى 8 ماي، حيث قال: «لك الويل أيها الاستعمار! أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجذك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام، ويجوع أهله وأهلك بطان، ويثب في العواصف التي إلى أهله بعد أن شاركك في النصر لا في الغنيمة ولعل فرحه بانتصارك مساو لفرحه بالسلامة - فيجد الأب قتيلا، والأم مجنونة من الفزع، والدار مهدومة أو محرقة، والغلة

متلفة، والعرض منتهكا، والمال نهباً مقسماً، والصغار هائمين في العراق؟»⁽³⁰⁾. وكلّهما أسئلة استنكارية للمجازر التي ارتكبها المستدمر الفرنسي في حقّ الشعب الجزائري توحى بالنزعة الوطنية الغيورة للشيخ، ولم يكتف أدباء الجمعية بالقضية الوطنية، بل شاركوا إخوانهم العرب همومهم وقضاياهم ولعلّ من أعظم القضايا التي هزّت وجدانهم القضية الفلسطينية، حيث يقول الشيخ الإبراهيمي متحدثاً عن مكانة فلسطين في نفوس الشعب الجزائري المسلم: «يا فلسطين! إنّ في قلب كل مسلم جزائري من قضيتك جروحاً دامية، وفي جفن كلّ مسلم جزائري من محتكك عبرات هامية، وعلى لسان كلّ مسلم جزائري في حقك كلمة مترددة هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير؛ قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصغير... يا فلسطين! إذا كان حب الأوطان من أثر الهواء والتراب، والمآرب التي يقضيها الشباب، فإنّ هوى المسلم لك أن فيك أولى القبلتين، وأنّ فيك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله»⁽³¹⁾. نلمس هنا في كلمات الشيخ روحه القومية الإسلامية وإحساسه بمصائب إخوانه في فلسطين ويشير الدكتور أبو القاسم سعد الله إلى دور صحافة الجمعية في تبني القضايا القومية فيقول: «خصصت الصحافة الافتتاحيات الضافية والأبواب الدائمة لدراسة طبيعة فلسطين وأهميتها التاريخية والقومية للعرب، وقد اشترك في الدعوة إليها والكتابة عنها كبار أدباء الجزائر ومفكروها أمثال: ابن باديس، والمدني، والإبراهيمي، والعقبي ومحمد العيد، وسحنون. وكتب عنها شيخ أدباء الجزائر محمد البشير الإبراهيمي سلسلة من المقالات الافتتاحية في (البصائر) كانت تفيض عاطفة وحمية، دعا فيها الشعب الجزائري إلى مزيد من البذل ومشاركة الشعب العربي هذه القضية القومية»⁽³²⁾.

هذه نماذج عن اهتمام علماء الجمعية بالقضايا الوطنية والقومية وحرصهم على بثّ الوعي الوطني والقومي في نفوس الشعوب العربية عامة والشعب الجزائري خاصة، سقناها كأمثلة لعدم اتساع المقام للإلمام بجميع آثار هؤلاء الأفاضل.

خاتمة:

بعد هذه الرحلة الماتعة في رحاب تاريخ علماء الجمعية، والوقوف على أهم موقفهم وأعمالهم في سبيل النهوض بالأمة الجزائرية وروحهم الإصلاحية التي كانت الحصن الحصين الذي احتمت به الجزائر وشعبها من ظلم الاستعمار، من آثارهم الخالدة نتوصل إلى الآتي:

- لقد كانت الجمعية بأعضائها الأشاوس سداً منيعاً وقف دون فقدان الشعب الجزائري لهويته وثوابته.

- إنَّ إيمان علماء الجمعية بقضيتهم الوطنية جعلهم يحققون نتائج عظيمة في إصلاح حال الأمة الجزائرية.

- فُجَّ علماء الجمعية النابع من الروح الإسلامية الخالصة نموذج يجب أن يحتذى به في مشروعا الإصلاحية حاضرا ومستقبلا.

- إنَّ المشروع الإصلاحية يجب أن ينطلق من المجتمع ذلك أنَّ الله لا يصلح ما يقوم حتى يصلحوا ما بأنفسهم.

- لن يصلح حال الأمة اليوم إلا بما صلح به أولها وهذا ما آمن به علماء الجمعية.

- وأخير ينبغي علينا العودة إلى هذا التراث الجيد بالنظر المتفحص والقراءة المعمقة الجادة علنا نستطيع استثماره في حاضرتنا ومستقبلنا، كما نرجو من أهل المجال مزيدا من الاهتمام بهذا التراث الذي هو روحنا الخالصة وهويتنا النقية.

الهوامش والإحالات

(1) - أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، دار الأمة، ط1، الجزائر، 2007، ص 21.22.

(2) - مبارك بن محمد المليي: رسالة الشرك ومظاهره، تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمن محمود، ط1، دار الراجعية، السعودية، 2001، ص28.

(3) - عمار طالي: آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس، ج1، م2، ص23.

(4) - المرجع نفسه، ص25.

(5) - المرجع نفسه، ص28.

(6) - المرجع نفسه، ص34.

(7) - المرجع نفسه، ص 100.101.

- (8) - رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه 28 / 1 [52]، ومسلم في كتاب البيوع باب أخذ الحلال وترك الشبهات 3 / 1219 [1599].
- (9) - ينظر: عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج 1، م 1، ص 125 وما بعدها.
- (10) - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 107.
- (11) - المرجع نفسه، ص ن.
- (12) - المرجع نفسه، ص 289.
- (13) - أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 133.
- (14) - عدنان مهدي: التعليم في الجزائر أصول وتحديات، دار المثقف، ط 1، 2018م، الجزائر، ص 21.
- (15) - عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج 1، م 1، ص 207.208.
- (16) - المرجع نفسه، ص 114.
- (17) - عدنان مهدي: المرجع السابق، ص 27.
- (18) - جريدة الصراط: ع 8، 1352هـ - 1933م، ص 3.
- (19) - ينظر: أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، دار الغرب الإسلامي ط 1، بيروت، 1997، ص 131 وما بعدها.
- (20) - ينظر: سمير أبيش، جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تعليم المرأة (1931-1956)، مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، ع 6، 2017، ص 124.
- (21) - عمار الطالبي: المرجع السابق، ص 118.
- (22) - ينظر أحمد طالب الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 152.153.
- (23) - المرجع نفسه، ص 113.
- (24) - المرجع نفسه، ص 126.
- (25) - محمد الصالح الجابري: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات السهل، ط 1، الجزائر، 2009، ص 33.
- (26) - ينظر: المرجع نفسه، ص ن.
- (27) - عمار الطالبي: آثار ابن باديس، ج 2، م 1، ص 571.
- (28) - أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، ط 5، 2007، الجزائر، ص 114.
- (29) - محمد العيد آل خليفة: ديوان محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، الجزائر، ط 1، 2010، ص 380.
- (30) - أحمد طالب الإبراهيمي: عيون البصائر، ص 371.
- (31) - المرجع نفسه، ص 491.
- (32) - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 108.109.